مقالات عن الإمام محمد ناصر الدين الألباني

خواطر وعبر محطات في حياة الشيخ

بوابة تراث الإمام الألباني

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خواطر وعبر

محطات في حياة الشيخ الألباني

● بقلم: محمد بن بديع موسى

■■ الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على إمامِ المرسلين، وخاتم النّبيين، وعلى آله وأصحابِهِ أجمعين، وبعد:

في مناسباتِ الْحُزنِ، وفقدانِ الأَحِبَّة، عادةً ما ترفع الأَصوات، وتنبري الأقلام، وتَلْهجُ الألسنة بالثناءِ والمديحِ، وذكر المآثر، والمحاسن، والبطولات على المتوفّى، حتى لا يكادَ يُخَيَّل إليك إلاَّ أنَّ هذا الرجل؛ كان معصوماً عن كل زللٍ وخطيئةٍ، خالياً من النقائص والعيوبِ، متفرغاً لأعمال البر والتقوى، فإذا سمعت أو قرأت عنه -وأنت أعرف الناس به، وأقربُ الناس إليه- تشكُّ بنفسك، وتتوهّم أنَّك ما كنت تعرف عنه شيئاً، ولَم تكتشِفه إلاَّ بعد مماته.

هذا ما يحدث عادةً في عصرٍ انقلبت موازينه، وتغيَّرت أحوال أهله، فصار الكبير فيهم لُكَع بن لكع، والناطِق فيهم الرويبضة، والعالِم المبدع العبقري: من لا يعرف أين ربّه، أو لماذا خلقه ربُّه؟!

وبالمقابل لا نجدُ مكاناً لعَلَم من أعلام الأمَّة، ورمز من رموز نهضتها، ولا نعرف فضلاً لإمامٍ من أئمة المسلمين؛ الَّذين نذروا حياتهم لإحياء سنَّة محمد ﷺ.

فهذا محمد ناصر الدين الألبانيّ -رحمه الله-، ترعرع في دمشقَ الشام، وفي أيّام صباه هاله وراعه ما آلت إليه حال الأمّة: من جهلٍ، وخرافاتٍ، وتقليدٍ، وبدعٍ، وضلالاتٍ، بل من شركٍ ووثنياتٍ.

سمعه شيخٌ -من المشايخ- ينهى عن منكرٍ من المنكرات، فقال له ذلك الشيخ: ألَم تسمع بحديثِ النبي ﷺ: «دعوا الناسَ في غَفَلاتِهم»؟! قال الألباني -وكان شاباً-: من روى هذا الحديث؟ وما هي درجته؟ ففوجئ الشيخ بهذا الشاب، وعجز (بالطبع) عن إجابته؛ فراح الألباني يبحث في بطون الكتب، ويستأجر كتاباً تلو كتابٍ؛ فيفتش، ويبحث، ويدقق النظر، حتى هداه الله -عزّ وجلّ- إلى الحديث بتمامه: «دعوا الناس في غَفَلاتهم، يُرزَق بعضهم من بعض»؛ فخرّجه، وبيّن حال رواته، وعرف درجتهَ، فحدّثني مرة أنَّ ذلك كان فاتحةَ عمله بهذا العلم الشريف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شَقَّ طريقه بصعوبةٍ بالغةٍ بين بني قومه -من مقلِّدي المذهب الحنفي-، واهتدى إلى منهج السلف الصالح بعد جهادٍ وصبرٍ مريرين ﴿والَّذينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا وإنَّ الله لَمَعَ المُحْسِنين﴾.

وكان من العلماء الَّذين آثَروا على أنْفُسِهم أن يُزيلوا تراكمات الجهل والخُرافات، والتّقليد والبدع؛ التي أثقلت كاهل الأمّة، وغطت بواعث النور والأمل فيها، فرفع شعار: (التصفية والتربية) ليكون مشروعه التغييري المشروع، انقلاباً لا كانقلابات قصّار النظر، ومتحمّسي هذا الزمان، وإنَّما أراد -رحمه الله- أن يغيِّر هذا الواقع من جذوره، ويعالج مواطن الخلل والضعف الذي أصاب الأمَّة بعد أن كبّلتها قيود التقليد، وحَرَفتها عن منهج الحق أحاديث ضعيفة وموضوعة؛ درجت على ألسن الناس وملأت صحائف كتبهم.

فراح يذب عن سنَّة سيد المرسلين ﷺ؛ يبحث، ويخرِّج، ويحقّق، يُفَنِّد الضعيف مِنَ الصحيح، ويُواصل اللّيل مع النّهار، بجِدٍّ واجتهادٍ لا نظيرَ له في هذا العصر، أخذ مكانه في المكتبة الظاهريّة في دمشق، وكأنَّه موظف من موظفيها، ولَم ينقطع عن عمله الّذي كان يقتات منه، وقد جاوز الستين من العمر، فكانت دكانه لتصليح ساعات الناس وأفكارهم! ولم يكتفِ بِما أحدث في صفوف مشايخ دمشق من جدلٍ وإرباكٍ؛ جرَّاءَ هذا المنهج الّذي كان يدعو إليهِ، بل راحَ يبذر بِذارَ الخير في باقي مدن الشام، فيتناوَبُ على حمص، وحلب، وحماة، وإدلب -كل أسبوع مرّة- ليجدَ نفسه يوماً في سِجنِ الحسكة، بل وفي قلعة دمشق، القلعة التي آوت من قبله شيخيه -شيخ الإسلام ابن تيميّة، وتلميذه ابن قيّم الجوزيّة؛ رحمهم الله أجمعين- فدفع الثمن كما دفعه أسلافه، والذي يريد أن يشتري جنّة الله ورضوانه ماذا عليه لو دفع الثمن؟!

﴿إنَّ الله اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أنْفُسَهُم وأَمْوَالَهُم بأنَّ لَهُم الجَنَّةَ﴾.

أخبرني من كانَ قد سُجِنَ معه في القلعة، وقال: لقد وضعونا ستة إخوة في زنزانة انفراديّة، فكنّا لا نستطيع الركوع ولا السجود لضيقها، فنصلي إيماءً، ووافق سجنُه سجن العديد من علماء دمشق ومشايخها، مثل الشيخ حسن حبنكة الميداني، وابنه محمد، والشيخ عبد العزيز أبي زيد، والشيخ محمد الغلاييني، والشيخ عبدالله الغلاييني، والشيخ مروان حديد -الذي كان لا يفتأ يسأل الشيخ، ويستفيد منه- والشيخ عبد الرحمن الزعبي، وغيرهم.

وعندما نقل الشيخ إلى المهاجع الكبيرة كان يوزّع وقته بين نشر الدعوة السلفيّة، وعرض أفكاره، ومناقشة أهل العلم، وبين العمل ببحوثه، ومصنّفاته، فكان يعمل بتحقيق «مختصر صحيح مسلم» للحافظ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المنذري، وإلى جانب علوم الحديث والسُّنَّة تعلّم منه إخوانه الصبر والإيثار، ومعالي الأخلاق، جاءه مرّة (لحاف) من أهله، وكانت إدارة السجن قد خصصّت لكل خمسة أشخاص بطانيّة واحدة، فآثر إخوانه، ورووا عنه قصصاً كثيرة في ذلك؛ إلى أن منَّ الله عليه بالخروج من السجن في حرب حزيران (١٩٦٧م) .

أجل لقد هاجر إلى الله -عزّ وجلّ- ثم طُرد، ثم هاجر، وابتلاه الله -عزّ وجلّ- بما ابتلي به عباده الصالحين وعُلَماءه العاملين، والنبي ﷺ يبشّر ورثتَهُ: «أشد النّاس بلاءً الأنبياءُ، ثُمّ الأمثلُ فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسْب دينه، فإن كان في دينه صلباً، اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقّةٌ ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[1].

لقد اشتَدَّ عليه البلاء، واجتمعت المِحن، وكادت له الخصوم، فما نعلمه -والله- إلاّ كان راسخاً كالجبال، شامخاً كالطَّوْد، ثابتاً على دعوة الحقّ، ذابّاً عن منهج السلفِ، ما غيَّرَه سجن، ولا نفي، ولا فقر في أوائلِ عمُرِهِ ، ولا حرفَتهُ مغرياتٌ، ولا صيت، ولاشهرة، ولا جائزةٌ كانت في نهايات عمُره !!

كنّا نرى معه حفل نيل الجائزة التي تسلّمها عنه الأستاذ أبومالك -حفظه الله- قبل شهور، وكأن الأمر لا يتعلّق به، فهو الذي علّمنا أنَّ الإنسانَ يعلو بدِينه، وإيمانه، وعلمه، لا بشهاداته، وماله، وحَسَبه ﴿يرفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنكُم والَّذينَ أُوتُوا العِلمَ درَجَاتٍ﴾ وأيُّ درجةٍ في الدنيا أرفع من أن يضع الله له القَبول في الأرضِ؟ فانتشرَ علمه في بلادِ الدنيا، وتكاثر طلاّبه في أصقاع الأرض، جلّهم عرفه، وتتلمذَ عليه، وتمنّى لو رآه مرّة.

ومثل أي داعية مجدِّدٍ، ومُصلح، ومرشِدٍ، واجه كذلك خصوماً وأعداءً كُثراً، درسوا أبحاثه، ونقدوا كثيراً من أفكاره، ووضعوا تحت المجهر -زعموا- عيوبه، تجاوزوا كل حسناته ومآثره، وسلّطوا أضواءهم على أخطائه -زعموا- ومثالبه، ما ساعدهم على ذلك إلاّ الشيخ نفسه، الَّذي كان -ولا نزكيه على الله- وقّافاً عند الحق، يعترف بخطئه إن أخطأ، ويتقبّل النصح من ناصحيه لا يدّعي لنفسه الكمال والعِصْمة.

رحمك الله يا إمامنا، وأسكنك فسيح جنّاته، وجمعنا بك على حوض نبيّه ﷺ لقد آلمنا -والله- رحيلك، وصَعُب علينا كثيراً فراقُك، كما صعب على كثيرٍ من إخواننا انقطاعك عنهم في أيام مرضك الأخيرة، فقد

(١) رواه أحمد ، والبخاري، وصححه شيخنا في تخريج «المشكاة» (١٥٦٢)، و«السلسلة الصحيحة» (١٤٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تخيّلوا أنَّك لا زلت تركض كالغزال وأنت في العقد الثامن من العمر، توقظ إخوانك على صلاة الفجر كل يوم، وتحملهم بسيارتك لتؤدوا الصلاة في جبل النزهة، أو جبل الحسين، فينهالوا عليك بالأسئلة والبحوث منذ طلوع الفجر، ويترصّدوا لك جلساتك في المساء، لينهلوا من معين علمك، ثم بعد ذلك يعتبون عليك، لِمَ لا تفتح بابك لكل قادم ولكل محبٍ !! وأنا لا زلت أذكر كلمتك حينما أسررت إلي لتجيب عن ذلك: إنَّني ما زلت -والحمدُ لله- قادراً على الدراسة والبحث والكتابة فإن صرتُ إلى عُمرٍ لا أستطيع معه ذلك -وأسأل الله أن لا أصير إليه- فتحتُ أبوابي مشرعةً لكل النّاس، لأجعل من نفسي كما يقال: (شيخ عرب).

واستجاب الله له، فبقي قادراً على العطاء إلى آخر عمره، كان يستكتب أحفاده وتلامذته قبل أسابيع من وفاته، فدخلنا عليه مع الشيخ الدكتور محمد الصباغ، وسأله -حفظه الله- عن حاله، وصحّته، وأعماله، فوصف له ضعف قوّته، وما يعانيه عند البحث في المراجع، وأنَّه (ما حكّ جلدك مثل ظفرك)، وتساءل: أين تلك الأيام التي كنت أصعد فيها بنفسي على السلّم، وأتناول ما شئت من المراجع والكتب؟ لقد أتعبتني هذه (الدّوخة)، ولم أجد عند طبيبٍ من الأطباء علاجاً، أو أملاً في علاجها !

غفر الله لك يا شيخنا، إنَّ النفس الكبيرة تُرهق بَدَن صاحبها، وإنَّ الروح العظيمة لا يسعها جسدٌ مثل جسدك، فسامحك الله، وجعل مرضك كفّارة وطهوراً لك، كيف لا يدوخ رأسٌ وسع كل هذه الدراسات والبحوث، والمشاريع العلميّة، والدعويّة، التي لو اجتمع عليها طائفة من أهل العلم طوال حياتهم لما أنجزوها؟ كما أنّهم لو اجتمعوا على إتمام ما بدأت به لما أتمّوه كما تريد.

رحمك الله رحمةً واسعة، وجزاك عن المسلمين خير الجزاء، فعلى مثلك يكون الحزن وفقدان مثلك هو المصيبة، فإنْ فارقتنا بجسمك؛ فأنت معنا في كل يوم بما ورّثت، لقد علّمتنا هدي النبي ﷺ في حياتك، وفي مماتك، وبعد مماتك، ما فارَقْتَ دَعوتَك ولا فارقَتْك دعوتُك حتى وأنت مسجّىً في نعشك، ما أن جاء أمر الله فيك عند المساء إلاّ وبادرنا بتنفيذ وصيّتك، فجهزناك، وحملناك على الأعناق، وصلّينا عليك، ولحدناك قبل أن يستيقظ العالم على خبر وفاتك فأنت الّذي ذكرت لنا في «أحكام الجنائز» حديث النبي ﷺ: «أسرعوا بالجنازة، فإنَّ تك صالحةً فخيرٌ تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشرٌ تضعونه عن رقابكم».

فنسأله -تعالى- أن نكون قد أسرعنا بك إلى الخير والنعيم، لنوفّيك بعض فضلك، وأن يجمعنا بك تحت لواء سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، وأن يعوّض الأمّة الإسلاميّة خيراً وأن يتقبل منك صالح عملك، إنَّه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين■

شبكة الألوكة - قسم الكتب